مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الثاني عشر – العدد الأول، ص241- 262، يناير 2004م

كلمة سَبَّحَ ومشتقاتها في القرآن الكريم

دراسة تحليلية

محمد رمضان البع

قسم اللغة العربية – كلية الآداب – الجامعة الإسلامية بغزة

ص. ب 108، غزة – فلسطين

ملخص: يتناول البحث كلمة سَبَّحَ ومشتقاتها في القرآن الكريم مبيناً المعاني اللغوية والدينية التي تدل عليها محاولاً الربط بين أصوات كلمة سبح وتلك المعاني مستعيناً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأدعية المأثورة وكاشفاً عن العلاقة بين ورودها بالأزمنة المختلفة ودوام التسبيح لكل المخلوقات ، وأن ألفاظ التسبيح لا تستعمل إلا لله تعالى ، وأن سبحان لا تأتي إلا منصوبة أو مضافة للدلالة على تنزيهه عن كل النواقص متضمنةً معاني الطلب والنفي والتعجب .

Abstract: This research discusses the *word sabbah* (glorify Allah) and its derivatives in the holy Qur'an, giving their linguistic and religious signification's and trying to relate these signification's to the sounds of the word 'sabbaha' using Quranic verses, Prophetic traditions (*Hadiths*), and reported supplications. It shows that there is a relationship between the usage of these expressions in all tenses and the continuity of *tasbeeh* by all creatures. The study emphasizes that the expressions of *tasbeeh* are only used for Allah and highlights that the expression *subhan* is only used in the accusative case and governed by Him (Allah) to indicate how He is far above all defects, including the signification's of request, negation, and surprise.

المقدمة

القرآن الكريم كتاب الله المنزل الذي يهدي للتي هي أقوم ، وأحكامه وتعاليمه هي دستور الأمة الأعظم ، وألفاظه ومعانيه اختارها الله تعالى لتوضع في منازلها ، ولا يجوز استبدالها بغيرها .

وقد توالت الأبحاث القرآنية تحاول الكشف عن أسراره ، وتفهم ألفاظه ، ومعانيه ، وبيان قيمتها، وما يستجد في دلالتها ، وما يؤكد بلاغتها ، وفصاحتها ، وهذا البحث يختص بدراسة ألفاظ التسبيح الواردة في الآيات القرآنية . وقد حاولنا فيه إبراز دلالتها اللغوية كما وردت في كتب المعاجم وأقوال العرب القدماء نظماً ونثراً ، وما اكتسبته ألفاظ التسبيح في معناها الديني من خلال فهم العلماء المفسرين لها وما تدل عليه في جميع مشتقاتها الفعلية والاسمية . ثم حاولنا بيان العلاقة بين أصوات ألفاظ التسبيح وما تدل عليه من معان لغوية ودينية ، أي استيحاء صفات الصوت المنطوق والربط بين صفات الصوت ، وبين دلالته المستعملة لغوياً ودينياً مسترشدين في ذلك بكثرة ورود ألفاظ التسبيح في القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية والأدعية المأثورة واختصاص الله تعالى بها دون سواه .

وفي الجانب الصرفي قمنا بدراسة إحصائية لألفاظ التسبيح وبينا ما ورد في القرآن الكريم من

مشتقاتها الاسمية والفعلية وما يلحق بها من زوائد صرفية تدل على معان نحوية ودلالية .

وفي الجانب النحوي حاولنا التعرف على كلمة (سبحان) وهل هي اسم أو مصدر وعللنا سبب نصبه دائماً واعتباره ممنوعاً من الصرف لا يجوز تنوينه . وفي الجانب الدلالي تحدثنا عن الدلالات التي تدل عليها ألفاظ التسبيح مع بيان أنواع الكائنات المسبحة لله تعالى وكيفية تسبيحها والمقامات التي تستعمل فيها ألفاظ التسبيح . والاستشهاد على ذلك كله من خلال الآيات القرآنية وتفسيرها وأقوال العلماء فيها .

ألفاظ التسبيح لغة واصطلاحاً

السَّبْحُ والسِّبَاحَةُ لغة(1) : " العوم سبح بالنهر وفيه يسبح سبحاً وسباحةً ، ورجل سابحٌ وسبوح من قومٍ سُبحاء وسباح من قوم سباحين ، وأسبح الرجل في الماء عومه .

قال أمية :

وَالمُسْبِحُ الْخُشْبَ فَوْقَ الماءِ سَخَّرَهَا   فِي الْيَمِّ جَـرْيَتُهَا كَـأَنِّها عُـوَمُ

وسبحُ الفرس : جريه وفرسٌ سبوح وسابح : يسبح بيديه في سيره . والسوابح : الخيل لأنها تسبح ، وهي صفة غالبة ، وفي حديث المقداد : أنه كان يوم بدر على فرس يقال له سبحةٌ ؛ قال ابن الأثير : هو قولهم فرسٌ سابحٌ إذا كان حسن مد اليدين في الجري ؛ وقوله أنشده ثعلبٌ :

لَقَدْ كَانَ فِيَها للأَمَانَةِ مَوْضِعٌ   وللِعَينِ مُلْتَدٌّ ولِلكَفِّ مَسْبَحُ

فسره فقال : معناه إذا لمستها الكفُّ وجدت فيها جميع ما تريد .

والنجوم تسبح في الفلك سبحاً ، إذا جرت في دورانها " .

فالسَّبْحُ إذاً السرعة في العوم والجريُ في السير ، وهذا واضح في قوله تعالى: " **وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** " (يس : 25) أي يجرون ولم يقل تسبح ؛ لأنه وصفها بفعل من يعقل ؛ وكذلك قوله : " **وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا** " هي النجوم تسبح في الفلك ، أي تذهب فيها بسطاً ، كما يسبح السابح في الماء سبحاً ؛ وكذلك السابح من الخيل يمد يديه في الجري سبحاً وقال الأعشى :

كَمْ فِيهِمُ مِنْ شَطْبَةٍ خَيْفَقٍ   وسَابِحِ ذِي مَيْعَةٍ ضَامِرِ(2)

ويؤيد ذلك ما ذهب إليه اللغويون والمفسرون في تفسير قوله تعالى : " **وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا** " (النازعات : 3-4) قال الأزهري(3) " : السابحات السفن والسابقات الخيل، وقيل : أنها أرواح المؤمنين تخرج بسهولة ؛ وقيل : الملائكة تسبح بين السماء والأرض.

وسبح اليربوع في الأرض إذا حفر فيها .

وسبح في الكلام إذا أكثر فيه " .

والمصدر من سبح بفتح السين والباء غير المضعفة سبحٌ وسباحةٌ ، ومنه قوله تعالى: " **إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً** " (المزمل : 8) ، والفاعل من سبح سابح وسبوح كقوله تعالى: " **وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا** " (النازعات : 3) ، وسابح تجمع على سبحاء وبه قال الشاعر :

ومَاءٍ يَغْرَقُ السُّبَحَاءُ فِيهِ   سَفِينَتُهُ الْمُوَاشِكَةُ الْخَبُوبُ

وفرسٌ سبوح والخيل سوابح ، والمبالغ في السباحة سبّاح وجمعها سباحون ، وسباح صفة للرجل تدل على المهارة والمبالغة في السباحة وكأنها حرفة غلبت عليه وأصبح يعرف بها ، والواحدة منها هي سبحة بفتح السين وهي ثوب من الجلود وجمعها سباح ، قال مالك بن خالد الهذلي :

وسَبَّاحٌ ومَنَّاحٌ ومُعْطٍ   إِذَا عَادَ الْمَسَارِحُ كَالسِّبَاحِ

وقال شَمِرٌ : " السباح ، بالحاء ، قُمص للصبيان من جلود ، وأنشد :

كأن زوائد المهرات عنها   جواري الهند مرخية السباح

وأما سبوحة ، بفتح السين مخففة : البلد الحرام ، ويقال : وادٍ بعرفاتٍ ؛ وقال يصف نوق الحجيج :

خَوَارِجُ مِنْ نُعْمانٍ أَوْ مِنْ سَبُوحَةٍ   إِلَى الْبَيْتِ أَوْ يَخْرُجْنَ من نَجْدِ كَبْكَبِ "[4]

وأما سبّح بتضعيف الباء فمصدره تسبيح ، والتسبيح لغة التنزيه والبراءة والحمد والذكر والصلاة وغيرها من المعاني التي لا تتعلق إلا به سبحانه وتعالى .

المعنى الأول كما قال صاحب اللسان[5] : " التسبيح التنزيه وسبحان الله : معناه تنزيهاً لله من الصاحبة والولد وقيل : تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به،... وروى الأزهري بإسناده أن ابن الكواء سأل علياً ، رضوان الله تعالى عليه ، عن سبحان الله ، فقال : كلمة رضيها الله لنفسه فأوصى بها " .

المعنى الثاني : البراءة وهو بمعنى التنزيه أيضاً قال سيبويه : زعم أبو الخطاب أن سبحان الله كقولك براءة الله ، أي أُبَرِّئُ الله من السوء براءة ، وقيل : قوله سبحانك أي أنزهك يا رب من كل سوء وأبرئك ، وجاء في معنى البراءة قول الأعشى :

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ   سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الْفَاخِرِ !

أي براءة منه[6] .

المعنى الثالث : الصلاة والذكر كقولك : قضيت سبحتي ، وروي أن عمر ، رضي الله عنه ، جلد رجلين سبحاً بعد العصر ، أي صليا ؟ قال الأعشى :

وسَبِّحْ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى   وَلاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَالله فاعْبُدَا

يعني الصلاة بالصباح والمساء ، وعليه فسر قوله تعالى : " **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** " (الروم : 17) يأمرهم بالصلاة في هذين الوقتين ؛ وقال الفراء : حين تمسون المغرب والعشاء، وحين تصبحون صلاة الفجر ، عشياً العصر ، وحين تظهرون الأولى ، وقوله تعالى : " **وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ** " (آل عمران : 41) أي وصل ، وقوله عز وجل: " **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ** " (الصافات : 143) أراد من المصلين قبل ذلك؛ وقيل : إنما ذلك لأنه قال في بطن الحوت : " **لا إِلَهَ إلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** " (الأنبياء : 87) .

والسبحة أيضاً " الدعاء وصلاة التطوع والنافلة ؛ يقال : فرغ فلان من سبحته ، أي من صلاته النافلة ، سميت الصلاة تسبيحاً لأن التسبيح تعظيم الله وتنزيهه من كل سوء ؛ قال ابن الأثير : " وإنما خصت النافلة بالسبحة ، وإن شاركتها الفريضة في معنى التسبيح ، لأن التسبيحات في الفرائض نوافل ، فقيل لصلاة النافلة سبحة ، لأنها نافلة كالتسبيحات والأذكار في أنها غير واجبة ؛ وقد تكرر ذكر السبحة في الحديث كثيراً فمنها : اجعلوا صلاتكم معهم سبحة أي نافلة؛ ومنها : كنا إذا نزلنا منزلاً لا نسبح حتى نحل الرحال ؛ أراد صلاة الضحى، بمعنى أنهم كانوا مع اهتمامهم بالصلاة يباشرون حتى يحطوا الرحال ويريحوا الجمال رفقاً بها وإحساناً"(7) . والسبحة : الخرزان التي يعد المسبح بها تسبيحه وهي مولدة .

المعنى الرابع : التحميد والتمجيد والتعظيم لله تعالى دون سواه ، قال ابن الأثير : " وقد يطلق التسبيح على غيره من أنواع الذكر مجازاً كالتحميد والتمجيد وغيرهما ، وسبحة الله جلاله"(8). وهذا واضحٌ في قوله تعالى : " **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ** " (القلم : 28) أي تستثنون ، وفي الاستثناء تعظيم الله والإقرار بأنه لا يشاء أحد إلا أن يشاء الله ، فوضع تنزيه الله موضع الاستثناء ، ... وسميت الصلاة تسبيحاً لأن التسبيح تعظيم الله وتنزيهه من كل سوء "(9) .

وأما سبَّح بتضعيف الباء وفتحها فمصدرها تسبيح كقوله تعالى : " **وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** " (الإسراء : 44) ومثلها فجر تفجيراً وكبر تكبيراً وغيرهما ، " وسبحان مصدر كغفران"(10). والواحدة منها سُبحة بضم السين – كما ذكرنا سابقاً – وجمعها سبحات ، وسبحات وجه الله ، جلاله وعظمته أو مواضع السجود ؛ لأنها مواضع التسبيح فتسمى سبحات وقيل أيضاً سبحات وجه الله أنوار وجهه ، وجاء في الحديث : حجابة النور والنار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره ، " والمعنى لو انكشف من أنوار الله التي تحجب العباد عنه شيء لأهلك كل من وقع عليه ذلك النور ، كما خر موسى ، على نبينا وعليه السلام ، صعقاً وتقطع الجبل دكاً ، لما تجلى الله سبحانه وتعالى(11) .

وأما سبوح فمعناه المنزه عن كل سوء وقال ابن سيده : سبوح قدوس من صفات الله عز وجل لأنه يسبح ويقدس ، وقال سيبويه : إنما قولهم سبوح قدوس رب الملائكة والروح ليس بمنزلة سبحان لأن سبوحاً قدوساً صفة ، كأنك قلت ذكرت سبوحاً قدوساً ونصبته على إضمار الفعل المتروك إظهاره أيضاً .

والسَّبَّاحة والمسبِّحة: الإصبع التي تلي الإبهام، سميت بذلك لأنها يشار بها عند التسبيح، وهذا واضح في حديث الوضوء في قوله "صلى الله عليه وسلم: فأدخل أصبعيه السباحتين في أذنيه".

وهكذا يتضح أن ألفاظ التسبيح تدور معانيها حول معنى واحد وهو التنزيه والبراءة له من كل سوء ، والتمجيد والتعظيم لله ، والانشغال بطاعته في الصلاة وبذكره عمَّن سواه ، وهي كلها تبرئ الله تعالى عن كل نقص ، وتبعده عن أن يكون له مثل أو شريك أو ند أو ضد .

الناحية الصرفية

وقد وردت ألفاظ التسبيح في القرآن الكريم في مواضع متعددة وعلى صيغ صرفية معينة:

القسم الأول : جاء على صورة الفعل في اثنين وأربعين موضعاً، أربعة للفعل الماضي

"سبَّح "(12)، وعشرون للفعل المضارع المبدوء بأحد حروف المضارعة " أنيت "(13) ، وثمانية عشر موضعاً لفعل الأمر " سبِّح "(14) .

القسم الثاني : جاء على صورة الاسم بأنواعه في خمسة وأربعين موضعاً منها المصدر " تسبيح " في موضعين(15) ، واسم الفاعل " مُسبِّح " في موضعين أيضاً(16) والمصدر غير " سبحان " في واحد وأربعين موضعاً(17).

ولعل الناظر إلى هذه الصيغ الصرفية المتعددة الواردة في هذين القسمين ، يلاحظ ما يأتي :

أولاً النسبة العددية المتقاربة بين صيغ القسمين – الأفعال والأسماء – الواردة في آيات القرآن الكريم ، مع ملاحظة أن أكثر الصيغ تكراراً هي صيغة " سبحان " المصدر غير القياسي المضاف إلى اسم الجلالة أو ما يقوم مقامه .

ثانياً إن من أكثر صيغ الأفعال وروداً صيغة الفعل الثلاثي المزيد بتضعيف العين " سبَّح " والذي أصبح بعد تضعيفه يدل على معان كثيرة اكتسبها من الزيادة بالتضعيف بعد دلالته على معنى واحد في صيغته الثلاثية المجردة .

ثالثاً من المسلم به عند اللغويين أن الزيادة في مبنى الكلمة تؤدي إلى زيادة في معناها ، وأن الأحرف الزوائد على أصل الكلمة لا تزاد عبثاً ، وإنما لتؤدي وظيفةً صرفيةً أو نحويةً ، أو دلاليةً محددة كما هو واضح في صيغة " فعَّل " التي زيدت بتضعيف عينها، فأصبحت تدل على معانٍ كثيرة كالتعدية والتسهيل والمبالغة والإزالة وغيرها . ومنها صيغة "سبَّح" التي تدل على اختصار حكاية الشيء أي قوله سبحان الله، ومثلها هلّل قال : لا إله إلا الله، وكبر قال : الله أكبر ، ولبى قال : لبيك ، وحمد قال: الحمد لله ، وأمّن قال: آمين. وكذلك " سبحل لمن أكثر من قول : سبحان الله(18) . وحوقل لمن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، وبسمل لمن قال : بسم الله الرحمن الرحيم .

رابعاً إن مجيء التسبيح بصيغة الفعل الماضي ، والمضارع ، والأمر في اثنين وأربعين موضعاً – كما ذكرنا – وهي تعدل نصف عدد ألفاظ التسبيح الواردة في القرآن الكريم، يدل على أن تسبيح الله حادث من جميع الأشياء وفي كل الأزمنة ، وهي مسبحةٌ له في كل الأوقات ولا يختص تسبيحه في وقت دون وقت ، بل هي مسبحة أبداً في الماضي وتبقى مسبحةً أبداً في الحاضر، وستكون مسبحةً أبداً في المستقبل(19) . وقال البيضاوي(20): " إن ورود الفعل " سبَّح " بصيغة الماضي في أول سورة الحديد والحشر والصف ، وروده بصيغة المضارع في سورة الجمعة والتغابن " بأنَّ من شأن ما أسند إليه أن يسبحه في جميع أوقاته لأنه دلالة جبلِّية لا تختلف باختلاف الحالات " .

خامساً إن مجيء التسبيح بلفظ المصدر غير القياسي "سبحان" في واحد وأربعين موضعاً، يدل أيضاً على دوام التسبيح لله خالصاً له(21)، "وإن استعمال صيغة المصدر مطلقاً في بني إسرائيل أبلغ من حيث إنه يشعر بإطلاقه على استحقاق التسبيح من كل شيء وفي كل حال".

سادساً إن الفعل بلفظ " سبَّح " قد يتعدى إلى المفعول به بنفسه كما في قوله تعالى : " **وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ**

وَأَدْبَارَ السُّجُودِ " (ق : 40) . ومثلها : " في الطور والإنسان " . وقوله : "**فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** " (مريم : 11) . وسبحوه في الأحزاب ، وقد يتعدى بحرف الجر اللام كما في قوله تعالى: "**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**" (الحديد : 1) . ومثله في التعدية باللام في الحشر والصف والأصل فيه أن يكون متعدياً بنفسه لأن معنى سبحته بعدته عن السوء ، كقولنا : نصحته وشكرته. وأما إذا تعدى باللام – كما ذكرنا – فهي إما أن تكون مزيدةً للتأكيد كقولنا في شكرته شكرت له وفي نصحته نصحت له . وإما أن تكون مزيدة للتعليل أي أفعل التسبيح لأجل الله تعالى سبحانه خالصاً له، أو للإشعار بأن إيقاع الفعل لأجل الله هو خالصٌ لوجهه الكريم . وقد يتعدى فعل التسبيح بحرف الجر الباء كما في قوله تعالى: "**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**" (الواقعة 74، 96 ، والحاقة 52).

سابعاً وإذا كانت الزيادة في المبني تدل على زيادة في المعنى ، فإن زيادة الألف والنون كلاحقة على صيغة الفعل (سبَح) تدل على معان وظيفية ودلالية ، وهي – كما يبدو – للمعاني المتخصصة في الدين والعلم ، كما قيل : (بحران) المريض أي تحيره من الفزع واشتداد عطشه ولعل الذي يرجح ذلك أننا لاحظنا أن اللاحقة (آن) موجودة في بعض المصادر مثل (شكران) وضدها (كفران) ، يقول الله تعالى : " **فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ** " (الأنبياء 94) . فـ (لا) النافية للجنس تنفي أي نوع من الكفر مهما كبر ، على غير لو قيل فلا كفر إذ أنها لا تنفي بالتبعية الكفران . وكذلك " وجدناه في جموع التكسير في صيغتي فِعلان (بالكسر) مثل إخوان وفُعلان (بالضم) مثل فرسان وفي بعض الصفات في صيغة فَعلان بالفتح مثل غضبان ومؤنثه غضبى ، فهذه اللاحقة التي تدل على الجمع أحياناً وعلى الصفة غير المقيدة بزمن أحياناً أخرى وعلى الأسماء التي تعين الذكر من الحيوان مثل أفعوان (ذكر الثعبان) وعقربان (ذكر العقرب) فهي دلالة التكبير "(22) . وضده التحقير مثل ألعبان (لاعب) ... كل هذا يطمئننا إلى أن (سبحان) على ما رأينا أيضاً من استعمالها واستعمال مادة (سبَّح) متخصصة أشد التخصص ... متخصصة لتنزيه الذات العلية .

الناحية الصوتية

قبل أن نتحدث عن العلاقة بين ألفاظ التسبيح ومدلولاتها يحسن بنا أن نمهد لذلك بلمحة موجزة عن الصلة بين اللفظ ومدلوله أو بين الرمز وما يرمز إليه(23) "وهي مشكلة دارت حولها مناقشات المفكرين وآرائهم في القديم والحديث فقد تحدث فلاسفة اليونان والرومان في أمر العلاقة بين اللفظ والمعنى"(24)، "وقد شهد العرب القدماء بهذا الموضوع واهتموا به اهتماماً بالغاً ، ويكاد اللغويون العرب يجمعون على القول بهذه العلاقة" ، وقد ذكر ابن فارس(25) : " أن القلم لا يكون قلماً إلا وقد بري وأصلح وإلا فهو أنبوبة وسمعت أبي يقول: هو عودٌ قُلِّم من جانبه كتقليم الأظفر " . وكذلك ابن جِنى الذي بسط هذا الموضوع وتوسع في الحديث فيه إذ كان يؤمن بوجود صلة قوية بين اللفظ ومدلوله وقد خصص في كتابه الخصائص فصلين لهذا الموضوع هما : بابٌ في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعنى وباب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني(26) ، غير أن عباد بن سليمان الصيمري المعتزلي قد غالى فقال(27) : " إن بين اللفظ ومدلوله

مناسبة طبيعية موجبة حاملة للواضع على أن يضع ، وقد كان للأصوليين رأي في هذا الموضوع وكان اللفظ في تصورهم دليل فكر وهو خاضعٌ للتطور ، والتغير ، ولذا فقد نال أمر اللفظ ومدلوله من الأصوليين عناية فائقة محاولين في ذلك تحديد دلالته يقول الغزالي في العلاقة بينهما(28) : " فاعلم أن كل من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك ، ومن قرر المعاني أولاً في عقله ثم اتبع المعاني الألفاظ فقد اهتدى ، فالمعاني عنده توجد في الفكر أولاً ثم تقوم بالتعبير عنها وهذا الاتجاه نجده عند أحد علماء الغرب وهو العالم الإنجليزي ستيفن أولمان الذي يرجع الفضل في ذلك إلى عالمين غربيين من علماء اللغة وهما: أوجدن وريتشارد إذ يقول(29) : " فالدورة – وهي عملية التعبير عن المعنى – يجب أن تبدأ عن طريق الفكر أي عن طريق المحتوى العقلي الذي تستدعيه الكلمة والذي يرتبط بالشيء ، وسوف نعرف اللفظ حينئذٍ بأنه الصيغة الخارجية للكلمة وأما المدلول فهو الفكرة التي يستدعيها اللفظ " ، وإن كان يوضح لنا أن العلاقة بين اللفظ ومدلوله علاقة متبادلة فليس اللفظ وحده هو الذي يستدعي المدلول أيضاً ويمكنه أن يستدعي اللفظ وهذه العلاقة بينهما هي ما يمكن أن يطلق عليه مصطلح المعنى فيعرف المعنى أنه العلاقة المتبادلة بين اللفظ والمدلول علاقة تمكن كل واحد منهما من استدعاء الآخر ، ثم يمثل لذلك بعدة كلمات تتحقق فيها هذه العلاقة فكلمة قهقه عنده معبرة ووصفية إلى حدٍّ ما للصيغة نفسها والأصوات فيها دليل على دلائل المعنى وفي استطاعة الأجنبي الذي لا يعرف مدلول هذه الكلمة أن يخمنها بالمعنى تخميناً دقيقاً إلى حدٍّ ما على حين أنه لا يمكنه البتة أن يخمن معنى كلمة منضدة من الصوت نفسه ، وكذلك يرى كلمة تمايل فإنها ترجمت فيها الحركة ترجمةً بوسائل صوتية(30) .

ويذكر الدكتور إبراهيم أنيس أن الدارسين في الجامعات الأوروبية كانوا حتى منتصف القرن التاسع عشر ينتصرون لفكرة الصلة بين اللفظ ، ومدلوله ولكن عندما نشطت الدراسة اللغوية في أواخر هذا القرن وأوائل القرن العشرين ظهر الرأي المعارض لهذه الفكرة واحتج أصحابه بوجود المشترك اللفظي والمترادف وتطور الأصوات والمعاني ، ثم وقف الدكتور أنيس موقفاً وسطاً فقال(31) : " ونحن حين نتخذ طريقاً معتدلاً بين هؤلاء وهؤلاء ندرك كل الإدراك أن في اللغة معان تطلب أصواتاً خاصة وإن هناك من المدلولات ما تسارع اللغة للتعبير عنه بألفاظ معينة " . ثم قال(32) : " ولا يسع الباحث المنصف بعد كل هذا إلا أن يعد أولئك الذين انتصروا للربط بين الأصوات والمدلولات قوماً من الأدباء يستشفون من الكلمات أموراً سحرية ويتخيلون في منطوقها رموزاً وعلامات لا يتخيلها اللغوي العملي.

وإذا كانت اللغة – كما يقول السهيلي(33) – وحياً وإلهاماً فلا بد أن يكون هناك تطابقٌ بين الألفاظ التي هي الأجساد ومعانيها التي هي أرواحها حيث قال : فما خلق الله تعالى الأجساد في صفاتها المحسوسة إلا مطابقة للأرواح في صفاتها المعقولة ، ولا وضع الألفاظ في لسان آدم عليه السلام ، وذريته إلا موازنة للمعاني التي هي أرواحها " . وإذا كانت اللغة كذلك فهل توجد علاقة بين لفظ سبح ومدلولاته ؟

إن مخرج السين " ينطلق فيه الصوت بأن يعتمد طرف اللسان خلف الأسنان العليا مع ارتفاع

مقدمته بالنسبة للثة العليا مع وجود منفذ ضيق للهواء ويحدث الاحتكاك أي يرفع أقصى الحنك حتى يمنع مرور الهواء من الأنف ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به فيصير الصوت لثوياً احتكاكياً مهموساً(34) .

ولفظ " سبح " بدون تضعيف الباء يدل على معنى السرعة في العوم ، ولفظ سبَّح بتضعيف الباء يدل على معنى السرعة في الإقبال على الله ، والخفة في طاعته دون سواه ، ولعل صوت السين هو أول حروف كلمة السرعة في نطق اللفظين ويرتبط بمعنى السرعة في دلالتيهما ، وأن ما يحدث من احتكاك للجسد مع ما حوله في الموقفين يشبه احتكاك الهواء عند النطق بالسين مع أعضاء النطق الأخرى ، إذ تسمح بمنفذ ضيق للهواء ولا تغلق إغلاقاً تاماً .

وأما صوت الباء فعند النطق به يقف الهواء الصادر من الرئتين وقوفاً تاماً عند الشفتين إذ تنطبق هاتان الشفتان انطباقاً تاماً ويحبس الهواء مدة من الزمن ثم تنفرج الشفتان فيندفع الهواء فجأة من الفم محدثاً صوتاً انفجارياً ويتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق ، فالباء إذن صوت شفوي انفجاري مجهور ، وليس له نظير مهموس في اللغة العربية(35) . والباء أول حرف من حروف كلمة البراءة والتي هي معنى من معاني لفظ " سبح " أي برأ الله عما سواه ، فلا شيء ولا شبيه يماثله ، ولا ند ولا ضد يعادله . والبراءة أصل في التنزيه والتمجيد والتعظيم لله ولا تتم هذه المعاني إلا بها أي بمعنى البراءة ، فجاءت الباء بشدتها وانفجار الهواء مع نطقها دفعة واحدة معبرة عن قوة معنى البراءة وضرورته ، كما أن صفة الانفجار والجهر في صوت الباء تعبر عن ضرورة الجهر بتبرئة الله عن كل شيء ، ولعل تضعيف صوت الباء في " سبح " مع ما فيه من صفتي الشدة والجهر دليل على الإعلان بتبرئة الله والتضعيف دليل على تأكيد تنزيهه ، والإيمان بوحدانيته وألوهيته وربوبيته وتفرده في كل شيء . ومعلوم أن الزيادة في المبنى لكلمة " سبح " الناتجة عن تضعيف عينها تؤدي إلى الزيادة في معناها ، والتأكيد عليه، فجاءت صيغة " سبح " تدل على اختصار حكاية الشيء في قوله : سبحان الله كما سنبينه فيما بعد .

وأما صوت الحاء فعند النطق به (يضيق مجرى الهواء الحلقي بحيث يحدث مرور الهواء احتكاكاً ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به ، فالحاء صوت حلقي احتكاكي مهموس والحاء من الأصوات العربية ذات الصعوبة على غير العرب وكثير منهم ينطقونها كما لو كانت تاء أو هاء)(36) .

والحاء أول حروف كلمة حمد والحمد لون من ألوان التسبيح ومعنى من معانيه والذي هو تنزيه وبراءة لله عن غيره ، وهو نعمة ينبغي أن تحمد عند المؤمن ، فالمؤمن عندما يسبح الله كأنه يقول : اللهم إن تنزيهي لك نعمة وأنا أصحبها بأن أحمدك على أنك مكنتني من أن أنزهك أي أنا أنزهك عن كل شيء وبحمدك حصل ذلك التنزيه لك . ولذلك كثر مجيء صيغة الحمد بعد ألفاظ التسبيح مباشرة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنها قوله تعالى : " **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** " (السجدة ، 15) ، وقوله : " **قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** " (البقرة، 30)،

وقوله : " **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** " (الرعد ، 13) ، وقوله : " **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** " (الإسراء ، 44)[37] .

وأما الأحاديث النبوية فنذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه سعيد الجريري عن السعدي عن أبيه عن عمه قال[38] : " رمقت النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته فكان يتمكن في ركوعه وسجوده قدر ما يقول سبحان الله وبحمده ثلاثاً " ، وقوله في ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال الرسول صلى الله عليه وسلم[39] : " كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم " . وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[40] : " من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحدٌ يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه " .

الناحية النحوية

وأما المصدر من " سبح " قياساً فهو تسبيح كفجر تفجير وحسن تحسين وهذب تهذيب ومن ذلك قوله تعالى : " **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** " (الإسراء : 44) وقد ورد هذا المصدر في القرآن الكريم مرة واحدة في هذه الآية فقط كما أشرنا سابقاً ، وأما لفظ سبحان فقد ورد في القرآن الكريم في واحد وأربعين موضعاً مضافاً إلى ما بعده سواء أكان ضميراً متصلاً أو اسماً ظاهراً، وقال بعضهم في "سبحان" أنها مصدر غير قياسي للفعل سبح فقالوا سبح يسبح تسبيحاً وسبحان على أنهما بمعنى واحد مثل قولهم كفر اليمين تكفيراً وكفراناً، لأن تسبيح الله تبعيده عن كل نقص وسبحانه تنزيهه وبراءته من كل نقص[41].

وقال البيضاوي " سبحان مصدر كغفران ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله كمعاذ الله "[42] ، وقال صاحب التهذيب : " سبحت الله تسبيحاً وسبحان بمعنى واحد فالمصدر تسبيح والاسم سبحان يقوم مقام المصدر "[43] .

والأرجح عند أهل اللغة أن " لفظ سبحان " اسم ينصب انتصاب المصادر وهو عند المحققين اسم أقيم مقام المصدر وليس بمصدر وذلك لأن سبح " وزنها فعل " وفعّل يجيء مصدر على تفعيل وفعال لا على فعلان ، وزعم قوم أنه مصدر كما قالوا كفر اليمين تكفيراً وكفراناً . والصحيح أن سبحان وكفران اسمان أقيما مقام مصدرين وليسا بمصدرين[44] . ولعل كثرة استعمال لفظ سبحان دون المصدر تسبيح يرجع إلى اكتسابه اسم العلمية فهو اسم علم للتسبيح بمعنى التنزيه على الشذوذ كقول الأعشى :

قَد قُلتُ لَمّا جاءَني فَخْرُهُ   سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفَاخِرِ !

ولعل تصدير الكلام اعتذاراً عن استفسار وجهل بحقيقة الحال ، ولذلك جعلت مفتاح التوبة فقال موسى عليه السلام سبحانك تبت إليك وقال يونس عليه السلام سبحانك إني كنت من الظالمين[45] ، وقال الأزهري في قول الأعشى[46] : " سبحان من علقمة الفاخر " أي براءة منه وكذلك تسبيحه تبعيده ، وبهذا استدل على أن سبحان معرفة إذ لو كانت نكرة لصرفت ، ومعنى هذا البيت أيضاً والعجب منه إذ يفخر !

ثم قال : وإنما لم ينون لأنه معرفة وفيه شبه التأنيث ". وقال ابن جنى(47) : " إنما امتنع صرفه للتعريف ولزيادة الألف والنون وتعريفه كونه اسماً علمياً للبراءة كما أن نزال اسم علم لنزل ، وشتان اسم علم للتفرق ، ثم قال : وقد جاء لفظ سبحان في الشعر منونة نكرة " ، قال أمية :

سُبْحَانَه ثُمَّ سُبْحَاناً يَعُودُ لَهُ وقَبْلَنا سَبَّحَ الجُدِيُّ وَالْجُمُدُ(48) .

وأما ابن جنى فقال(49) : إن " سبحان " اسم علم بمعنى البراءة والتنزيه بمنزله عثمان وعمران إذ اجتمع في سبحان التعريف والألف والنون وكلاهما علة تمنع من الصرف " .

وأما مجيء لفظ سبحان منصوب دائماً فيعود – كما يقول سيبويه – إلى أن العامل فيه فعل لا من لفظه والتقدير أُنزه الله تنزيهاً ، فوقع سبحان مكان تسبيحاً وهو في هذا نحو قولهم قعد القرفصاء أو اشتمل الصماء أو انتصب بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره أسبح الله سبحان ثم نُزل منزلة الفعل وسد مسدهُ(50) .

وقد يكون نصبه على أنه في موضع فعل على معنى تسبيحاً له(51) وهذا هو الأرجح في إعرابه عند النحاة وتمشياً مع سياق المعنى إذ جاء منصوباً بفعل محذوف من جنسه سدت سبحان مسده أو منصوباً بفعل من جنس معناه على النيابة للمصدر .

وأما قول الكسائي أنه(52) : " منصوب على أنه منادى مضاف فهذا بعيدٌ جداً . لا يجيزه التركيب اللغوي ولا يقبله المعنى إذ إن سبحان ليست من أسماء الله الحسنى التي يجوز النداء بها إذ لم ترد في القرآن في موضع المنادى ولا في الأحاديث النبوية والقدسية ولا في الأدعية المأثورة .

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى أن لفظي " سبَّح " و" سبحان " قد يستغنيان عن حرف الجر بعدهما كقوله تعالى: "**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**" (الأعلى:1) وقوله تعالى: "**وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** " (الأحزاب : 42) وقوله : " **وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ** " (ق : 40) .

وأما إذا وجد حرف الجر فإما أن يكون اللام مقترنة بلفظ الجلالة أو الضمير العائد عليه جل وعلا قال تعالى : " **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ** " (الجمعة: 1) وقال : " **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ** " (الإسراء : 44) . وإما الباء مع اسم مضاف إلى لفظ الجلالة كما في قوله تعالى : " **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** " (الواقعة: 74، 96 ، والحاقة : 52) وقوله : " **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**" (الحجر: 98).

أما سبحان فحرف الجر بعدها (عن) مدغوم في (ما) الموصولة فقط والمعروف أن (عن) للمجاوزة والاستعلاء(53) ، قال تعالى : " **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** " (الصافات : 159)، وقال: " **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** " (الصافات : 180) . ويقول الفخر الرازي : "سبحان" مصدر لا فعل له فيستعمل مضافاً وغير مضاف وإذا لم يضف ترك تنوينه فقيل : سبحان من زيد أي براءة منه(54) .

وهنا نلتفت إلى حرف الجر " من " الذي لم يستعمل في القرآن مع " سبحان " . وإنما استعمل في الشعر كما في قول الأعشى المذكور سابقاً ، وليس هذا الاستعمال مقصوراً على الشعر وحسب إذ

كانت تقول العرب : سبحان من كذا إذا تعجبت منه(55) .

وهنا أيضاً نلتفت إلى عدم ورود " سبحان " منونة في القرآن الكريم وإنما تضاف إلى لفظ الجلالة أو الضمير العائد على لفظ الجلالة إذا دلت على النفي كقوله تعالى : " **سُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** " (يوسف : 108) وقوله تعالى : " **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً** " (الإسراء: 93)، وقوله : " **دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ** " (يونس : 10) وقوله : " **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ** " (الأنبياء : 26) ، وقد تضاف إلى اسم موصول يعود على لفظ الجلالة إذا دلت على التعجب كقوله تعالى : "**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**"(الإسراء:1)، وقوله: " **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** "(يس: 83) .

مقامات التسبيح ودلالاتها

إن التسبيح سنة الله في خلقه على اختلاف أجناسهم وأشكالهم . وجميع ما خلق الله تعالى من السماوات والأرض وما فيهن يسبح له موحداً إياه ومنزهاً له من كل سوء ، وعابداً وطائعاً له في كل شيء، وشاكراً وداعياً إياه في كل الأحوال والأوقات ، ومقراً له بالوحدانية والألوهية والربوبية ، لأن التسبيح خاص به ولا يجوز أن يقال أو يذكر به أحدٌ غيره . فألفاظ التسبيح اختص الله بها ذاته ولا يجوز للكائنات على اختلافها أن تذكر هذه الكلمة لبعضها البعض ، أو تنعت بها أحداً غير الله تعالى . فحيثما ذكرت ألفاظ التسبيح كان المراد بها الله جل جلاله .

أولاً مقام التنزيه

إن كل الكائنات مسبحة لله تعالى وإن اختلف التسبيح بينها كماً ونوعاً وكيفاً ، لقوله تعالى : " **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** " (الإسراء : 44) . وهذا إشارة إلى أن تسبيح المخلوقات يتناسب مع خلقها فتسبيح البشر باللسان والكلام ما دام الله تعالى قد خلق للبشر الألسنة ، وتسبيح الملائكة يتناسب مع خلقتها التي أوجدها الله عليها وقد يقال إن لها ألسنة كالسنة البشر ، وكذلك الجمادات والحيوانات على اختلاف أشكالها وألوانها وأحجامها وأسمائها فكلها تسبح الله تعالى بالكيفية التي علمها الله لها ، وأوجدها عليها في السماوات والأرض ، ونحن بني الإنسان لا نعرف كنه تسبيحها ولا كيفيته ، وقد استأثر الله تعالى بذلك دون سواه .

ولقد نص القرآن الكريم على مخلوقات بعينها وأخبر عنها أنها تسبح الله تعالى في كل الأوقات ، والتسبيح عندها قسمان :

الأول : تسبيح بلسان المقال ويشمل الملائكة والإنس والجن في مقام التقديس والتنزيه لله والتمجيد والتعظيم له دون سواه وقد كان التسبيح في نظر الملائكة – إن جاز التعبير – هو ما يكفل له البقاء في ملكوت الله دون منازع من بني البشر . وتأمل المقابلة بين "يفسد فيها"، و" نسبح بحمدك " لتدرك أن التسبيح ينأى بالمسبحين عن الفساد .

قال تعالى : "**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ**

الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" (البقرة : 30) .

ولقد صور القرآن الكريم الملائكة حافين من حول العرش – وهي أسمى ما يكون من صور الملكوت الأعلى – يسبحون ، يقول الله : " **وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** " (الزمر : 75) وفي آية أخرى : " **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** " (غافر : 7) .

إنها سلسلة من الفضائل – إن جاز التعبير – بدأت بالتسبيح لله وتلاها الدعاء لعباد الله. قال تعالى: "**وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** "(الشورى: 5) ومعنى تذييل الآية في نظرنا أن الله يجيب استغفارهم لعلهم بذلك يكونون مثلاً لبني البشر يسبحون ويستغفرون .

ولهذا نرى اتساقاً في وصف الملائكة بصفات متكاملة ، قال تعالى : " **وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا** " (النازعات : 2–4) ، فهي التي سبقت بالإيمان والتسبيح ، أو كما قيل سبقت إلى الإيمان والتصديق .

وأما الإنسان فليس من المستغرب أن يكون ملائكياً في تسبيحه القائم على التنزيه والصلاة والذكر والدعاء، وأعلى درجات التسبيح عند الإنس هو تسبيح الأنبياء كما في قوله تعالى على لسان موسى : " **وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا** " (طه : 33–35) .

فتسبيح الإنسان لله تعالى إقراره بتنزيهه عن الشريك والند وتبعيده عن المثيل والضد كما في قوله تعالى: " **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** " (الصافات : 180) ، وقوله: " **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** " (يس : 83) ، وقوله : " **أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**" (الطور:43)، وقوله: "**إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ**"(الأعراف:206) .

فالناس جميعاً يتقربون إلى الله تعالى بالتسبيح والذكر والدعاء ويتفكرون في خلقه وعظيم قدرته قائلين : ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك أنت المنزه عن كل نقص ، فنحن نسبحك آناء الليل والنهار ولا يختص تسبيحك في وقت دون وقت أو حال دون حال ، قال تعالى : " **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ** " (النور 36–37) . فهذه " المساجد التي أراد الله تشييدها ليذكر فيها اسمه ليلاً ونهاراً فيها رجالٌ لا يشغلهم عن تسبيح الله – أي تنزيهه – شاغلٌ من الماديات يخافون يوماً تضطرب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم أجر أحسن ما عملوا ويزيدهم ثواباً "(56) .

الثاني : تسبيحٌ بلسان الحال ويشمل كل ما خلق الله تعالى غير الملائكة والإنس والجن في مقام التقديس

والتنزيه له عن السوء في الذات والصفات والأفعال والأسماء والأحكام – وبعبارة أخرى – ما أبعد الذي له هذه الصفات عن جميع النظائر والنقائص وعما لا يليق به سبحانه تقدس في ذاته ، ومثال ذلك تسبيح الرعد بدلالته على وحدانية الله بحمده وتقديسه في قوله تعالى: "**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**" (الرعد: 13). وتسبيح الجبال والطير بدلالتها أيضاً على عظمة الله وتنزيهه عما سواه كما هو واضحٌ في قوله تعالى : " **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ** " (ص:18، 19) . وفي آية أخرى قوله : " **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** " (الأنبياء : 79) .

ولعل تخصيص الرعد والجبال – بما لا يخفى مغزاه – لأنها تمثل القوة الضخمة أو الجبروت المخيف أحياناً ولكنها أمام الله لا تملك غير التسبيح له وبه : واستعمال فعل "التسبيح" لها مما يوحي برقتها أمام عظمة الله، بل إن آية الرعد تحمل ما يشبه الطعنات الحادة في القلوب والعقول، ولا يخفف من حدة ألفاظها المناسبة للمقام غير "ويسبح الرعد بحمده..." سبحانه . وإذا قلنا (سبحانه) فإن المعنى ذلك المصدر من التسبيح الذي لا يختص به غيره ... فهو لله وحده كماً ونوعاً . " **وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** " (الزمر : 67) .

ولعل المقابلة بين الرعد والجبال من ناحية والطير من الناحية أخرى تشير إلى انه جاء بالرعد والجبال كمثال للقوة والطير كمثال للضعف وذلك لبيان أن جميع مخلوقات الله تعالى كبيرها وصغيرها وقويها وضعيفها تقر بالوحدانية لله تعالى وتتزهه عن كل النقائص وتسبحه في كل وقت وحال .

ومما يجدر ذكره أن خمس سور من القرآن الكريم بدأت بالإخبار عن تسبيح ما في السماوات وما في الأرض ثلاث سور بصيغة الفعل الماضي " سَبَحَ "(57) واثنتان بصيغة الفعل المضارع " يُسَبِحْ "(58) وقد ورد فيها وصف الذات العلية بالعزة والحكمة بما تحمل معنى العزة من المنعة والقوة وعدم النظير يقول تعالى: " **سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** " (الحشر 1 ، الصف : 1) . وفي سورة الحديد تأتي الآيات بعد الأولى كاشفة عن صفاته سبحانه في خمس آيات أخر وكأنها تشير لماذا يسبح لله مخلوقاته في السماوات والأرض ، يقول تعالى : " **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** " ... إلى قوله تعالى : " **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**" (الحديد:1–6).

" والأمر لا يقتصر على " ما في السماوات والأرض " وإنما يشمل السماوات والأرض أيضاً " **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** " (الإسراء : 44)(59) .

ومع هذه العظمة التي ندرك بعضها وتغيب عن أذهان البشر تفاصيل بعضها الآخر فإن التسبيح له وحده قال تعالى : " **قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا** " (الإسراء : 42 ، 43) .

ثانياً : مقام الطلب

الطلب يكون بين طرفين طالب ومطلوب منه وإن اختلفت درجاتهما ومراتبهما ، ويشمل الدعاء والنداء والتمني والاستفهام والاستغفار وغيرها . والتسبيح في مكان الطلب يكون مصحوباً بالتنزيه لله تعالى ووحدانيته والاعتراف بالعجز والضعف أمام قوته وقدرته مما يدفعه إلى أن يطلب منه الجنة والثواب ويحفظه من النار والعذاب . يقول تعالى : " **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** " (آل عمران: 190-191) ، فكل ما في الكون خلقه الله تعالى " وأن التفكير في خلق السماوات والأرض على ما بها من إحكام وإبداع واختلاف الليل والنهار لآيات لأهل العقول الذين يقرون بعجزهم مما يرون من بدائع صنعته وعجائب قدرته، والذين يذكرون الله على جميع الحالات قياماً وقعوداً ومضجعين ويتفكرون في خلق الوجود قائلين ربنا إنك ما أبدعت هذا كله عبثاً من غير حكمة سبحانك فاحفظنا من عذاب النار(60) . وكذلك واعد الله موسى أن ينزل عليه كتاباً فيه بيان ما يصلح قومه بعد أربعين ليلة واستخلف أخاه هارون وذهب لميقات ربه ، فلما كلَّمه طلب إليه أن يراه . فقال له هذا غير ممكن لأنك لا تطيق ذلك واراد أن يريه حقيقة ذلك فأمره أن ينظر إلى الجبل . فلما تجلى الله عليه ، بأن أفاض عليه بصيصاً من نوره تفتت الجبل وسقط موسى مغشياً عليه ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك من مثل هذا الطلب فاغفر لي واقبل توبتي وأنا أول المؤمنين بك ، وذلك في قوله : " **فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** " (الأعراف:143).

ولا يفوتنا في مقام الطلب أن نذكر تسبيح يونس عليه السلام ، قال تعالى:" **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** "(الأنبياء:87) حيث كان موقف يونس عليه السلام موقف ضيق مصحوب بالهم والغم يقتضي الصبر على شدة ما يعانيه، فقد عاش في ظلمات ثلاث ، ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل ، وهو ضيق مادي إن جاز التعبير ، وضيق معنوي تتأثر به النفس حتماً وينعكس عليها ، " ثم دعا ربه مسبحاً بهذه الكلمات فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش فقالت الملائكة يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال تعالى: أما تعرفون ذاك ؟ قالوا : لا يا رب ومن هو ؟ قال : عبدي يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ، يا رب أولا ترحمه بما كان يفعل في الرخاء فتنجيه من هذا البلاء ؟ قال : بلى، فأمر الله تعالى الحوت بطرحه في العراء(61) جزاءاً على دعاءه بالتسبيح لربه وطلبه منه أن يفرج همه بعد إقراره بذنبه وتوبته من خطيئته ، قال تعالى : " **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** " (الصافات : 142-143) ولذلك روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : " أنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له "(62) .

ونرى هذا الموقف أيضاً عند نبينا محمد صلى الله عليه وسلم – مما كان يتعرض إليه من قومه – وهو موقف يقتضي الصبر وسعة الصدر ، قال تعالى : " **فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ**

طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى " (طه : 130) فأمر الله نبيه قائلاً : " يا محمد اصبر على ما يقولون فيك وفي دينك وقدس ربك حامداً إياه على آلاءه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن ساعات الليل فسبحه وطرفي النهار لعلك ترضى "(63).

ومما يجدر ملاحظته أن الآية الثانية قد نصت على كلمة التسبيح مرتين وعلى كلمة الصبر مرة واحدة خلافاً للآية الأولى في حق يونس عليه السلام والتي كانت متضمنة معنى الصبر . وكما أتى الفرج ليونس عليه السلام لأنه كان من المسبحين ، جاء الصبر في الآية الثانية مقترناً بالتسبيح وصولاً إلى الغاية والمراد ، وهو الرضى لأنه كان من المسبحين والتسبيح عادة ملازمة له في كل الأحوال والأوقات ولعل الناظر في الآية يظن – للوهلة الأولى – أنها تحدد مواعيد التسبيح ، والحقيقة أنه لو أمعنا النظر فيها لوجدنا أنها تحث على التسبيح في كل وقت ليلاً أو نهاراً لأنه مفتاح باب السعادة التي ينشدها الفرد في كل وقت .

وكذلك يحكي القرآن الكريم قصة أصحاب الجنة في قوله : " **إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ* فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** " (القلم : 17–29) ، فإن منعهم الخير عن كل مسكين حرمهم نعمة التمتع بجنتهم وثمارها ، ولو كانوا في ذكر لله لارتضوا الوسطية في حياتهم فلا يبخلون ولا يسرفون وعندما نزل عليهم البلاء ودمر الله جنتهم أخذوا يتلاومون فأخبرهم أوسطهم أن عدم تسبيحهم وذكرهم لله ومنعهم حق المساكين الذي اعتادوا عليه هو السبب في بلاءهم فأقبل بعضهم على بعض يستغفرون ويسبحون ويسألون الله تعالى أن يفرج همهم وكربهم وأن يرفع عنهم البلاء .

فالتسبيح – كما يفهم من الآيات – سمة الاعتدال في التضحية والاتزان في السلوك .

ثالثاً : مقام النفي

النفي في اللغة نوعان :

أولهما الصريح : وهو الذي يتم بأحد حروف النفي المعروفة عند علماء العربية .

والآخر الضمني : وهو الذي يفهم من السياق عند استعمال كلمات أو عبارات معينة وقد تدل عليه كلمة في سياق ما، ولا تدل عليه الكلمة نفسها ، أو مشتقاتها في سياق آخر.

كذلك قد يفهم النفي ضمناً من الأسلوب أو النغم الصادر من المتحدث دون أن تعبر عنه كلمة بعينها ، ومن هذه الكلمات التي تفيد النفي ضمناً كلمة " سبحان " مع ما تضاف إليه من الأسماء كاسم الجلالة والضمائر واسم الموصول ، يقول الله تعالى : " **وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ** " (الأنعام:100)، وقال تعالى "**وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ**"(64) (البقرة : 116) ، وهذا النفي مشتمل على معنى

التنزيه لله تعالى عن أن يكون له ولد ذكر أو أنثى سبحانه وتعالى إنه بريء مما يقولون " **وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ** " (النحل : 57) ، وقال صاحب الطراز(65) : " (إن " سبحانه " كلمة تنزيه أوردها اعتراضاً بين الجملتين مبالغة في التنزيه) " ولعله يقصد بقوله المبالغة في التنزيه البراءة له من كل نقص ونفى أن يكون له مثيل أو ند ولا شريك أو ضد ؛ " لأن كلمة سبحانه في الآيات السالفة وردت بعد كلام المشركين وقولهم بأن لله بنين وبنات فأغنت هذه الكلمة عن دحض شبهاتهم ويقول الله : " **أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**"(66)(المائدة:116)، فقد دلت كلمة " سبحانك " على نفي الشرك بالله وأن يكون صدر من المسبح قول مثلما زعموا .

ولعل ما يوضح الصلة بينها وبين النفي أن الجملة المصدرة بها تكون عقب نفي صريح أو ضمني أحياناً أو يعطف عليها هي بنفي أيضاً أحياناً أخرى ، كما في قوله تعالى : " **مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** " (القصص : 68) ، وقوله : " **أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** " (الطور : 43) ، وقوله : " **قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** " (يوسف : 108).

وهكذا يتضح أن كلمة – سبحان – مع ما تضاف إليه – وهي على وجازتها – ذات تأثير قوي في النفس حين يسترسل القوم في ذكر ظنونهم وأوهامهم التي لا تليق بالذات الإلهية وصفاتها وأسمائها فتأتي كلمة – سبحان – وحدها كإشارة تلفتهم إلى أن طريقهم غير مأمونة ، أو اعتراض ينفي زعمهم وادعاءهم ، وهذه الإشارة وذلك الاعتراض قد يوجد في أول الكلام أو وسطه أو آخره وكلمة سبحان كذلك حيثما وجدت في النص القرآني ذات أهمية ومغزى في تنزيه الله تعالى وتبرئته من كل سوء .

رابعاً : مقام التعجب

إن التعجب قريب الشبه من النفي إذ كان التعجب " مما خفي سببه ولم يعلم "(67) . فيكون المتعجب منه في نظر المتعجب في حكم المستنكر كما هو واضح في قوله تعالى : "**بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ**"(الصافات : 12) ، وقوله : " **أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** " (الأعراف : 63) ، وقوله : " **وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** " (الرعد : 5) ، وقال النسفي : (سبحانك) للتعجب من عظم الأمر ، ومعنى التعجب في كلمة التسبيح أن الأصل أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه ، أو لتنزيهه من أن تكون حرمة نبيه فاجرة(68) وذلك في الآية : " **وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** " (النور : 16) ، فكلمة (لولا) هنا جاءت بمعنى هلا والمعنى هلا إذا سمعتموه قلتم لا ينبغي أن نتكلم بهذا سبحانك ربنا هذا اختلاق عظيم . والتعجب واضح في قوله تعالى:" **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير " (الإسراء : 1). فتصدير السورة بكلمة (سبحان) إشارة إلى الأمر العظيم بعدها الذي قد يكون فتنة للناس من فرط ما يتعجبون منه وقد ينكره البعض صراحة .

وكذلك قوله تعالى : " **وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** " (الزخرف : 13) وقوله:"**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ** " (يس : 36) ، وقوله : " **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** " (يس : 82 ، 83) ، " أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم".

ونحن نلحظ أن استعمالها بمعنى النفي أكثر من استعمالها للتعجب، إذ كان الاستعمال الأخير في أربع آيات من إحدى وأربعين آية وردت فيها كلمة (سبحان) في القرآن ، وإن كنا لا نفصل فصلاً تاماً بين النفي والتعجب كما ذكرنا ، كما في قوله تعالى : "**وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**" (النمل : 8) " تعجب لموسى عليه السلام من ذلك وإيذان بأن ذلك الأمر مريده ومكونه رب العالمين تنبيهاً على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشئون ".

قال تعالى : " **قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء** " (الفرقان: 8) تعجب منهم ، قد تعجبوا مما قيل لهم ؛ لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه ، أو نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون المتقدسون الموسومون بذلك فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده ، أو قصدوا به تنزيهه عن الأنداد(73) .

نتائج البحث

إن القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين ، وتعددت جوانب الإعجاز فيه ، وكان أبرزها إعجازه في ألفاظه ومعانيه وأساليبه . وقد اختص البحث بدراسة كلمة سبّح ومشتقاتها ومعرفة مواضعها ووجه الإعجاز فيها . وقد انتهيت فيه إلى ما يلي :

1- معروف أنَّ السبح في اللغة تدور معانيه حول السرعة والجري والخفة في العوم ، وكذلك التسبيح في معناه الديني يدور أيضاً حول معنى التنزيه عن كل النواقص والحوادث ، والبراءة له من كل سوء، والحمد والتمجيد والتعظيم له دون سواه من كافة الكائنات في جميع الأحوال والأوقات .

2- إن قضية الصلة بين اللفظ والمدلول تتحقق إلى حد ما بين أصوات كلمة سبح ومدلولاتها، فالسين صوت احتكاكي يمتد معه الهواء ليتلاءم مع السرعة والخفة في الإقبال على الله ، والباء بانفجارها وتضعيفها تتلاءم مع معنى البراءة المبدوء بالباء ، وصوت الحاء باحتكاكه وتذبذب الأوتار فيه لتتناسب مع صوت الحاء في أول الحمد أي يحمد العبد ربه دائماً على تمكينه إياه من تسبيحه وتنزيهه . ولذلك جاءت معظم ألفاظ التسبيح في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأدعية المأثورة مقرونة بلفظ الحمد .

3- إن النسبة المتقاربة بين الأفعال والأسماء في ألفاظ التسبيح تدل على وجوب تسبيحه في الماضي والحاضر والمستقبل ، وأما كلمة سبحان فهي اسم اختصه الله بذاته ولا يليق إلا له وهي مفتاح التوبة والسعادة لجميع المخلوقات في الدنيا والآخرة .

4- إن أفعال التسبيح تتعدى إلى مفعولها بنفسها أو باللام والباء ، وأما سبحان فلا تأتي إلا منصوبة غير منونة لزيادة الألف والنون الدالة على معانٍ نحوية ودلالية ، كما لا تأتي إلا معرفة مضافة إلى لفظ الجلالة أو الضمير العائد إليه أو الاسم الموصول الدال عليه ، ولا يليها من حروف الجر إلا حرف " عن " المدغمة مع ما الموصولة وقد يلحق بها حرف الجر " من " عند التعجب .

5- قد يكون التسبيح بلسان المقال عند الملائكة والإنس والجن ، وقد يكون بلسان الحال عند الكائنات الأخرى من الرعد ، والجبال ، والطير وغيرها ، وأن تسبيحها كلها في مقام التنزيه لله تعالى وتبعيده عن كل نقص .

6- إن التسبيح له دلالات أو مقامات أخرى غير مقام التنزيه كمقام الطلب بالدعاء والنفي والتعجب مع تضمنها لمعنى التنزيه أيضاً .

المصادر

1- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه ، طباعة دار الكتب المصرية ، 1941 .

2- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين البيضاوي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، الحلبي ، 1968م .

3- البيان في غريب إعراب القرآن ، تأليف أبو البركات بن الأنباري ، تحقيق الدكتور : طه عبد الحميد طه ، مراجعة : مصطفى السقا ، طباعة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1400هـ-1980م .

4- تفسير القرآن العظيم ، (ابن كثير) الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ، طباعة دار التراث، القاهرة ، 1400هـ ، 1980م .

5- تهذيب الصحاح : محمود بن أحمد بن محمود بن بختيار (الزنجاني) تحقيق عبد السلام هارون وأحمد عبد الغفار عطار ، طباعة دار المعارف 1952م .

6- تهذيب اللغة للأزهري ، تحقيق الأستاذ عبد الكريم الغرباوي مراجعة محمد علي النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1992.

7- الخصائص ، (ابن جني) أبو الفتح عثمان تحقيق محمد علي النجار ، طباعة دار الكتاب المصرية ، 1952م .

8- دور الكلمة في اللغة (استيفن أولمان) ترجمة الدكتور كمال محمد بشر ، دار الطباعة القومية ، مصر، 1962م .

9- سنن ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزويني ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، بيروت .

10- سنن أبي داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

11- شرح التصريح على التوضيح ، خالد بن عبد الله الأزهري وبهامشه حاشية يس بن زيد الدين العليمي ، طباعة الحلبي .

12- صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

13- الطراز " المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز " يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني ، طباعة المقتطف بمصر ، 1332هـ-1914م .

14- العربية الفصحى : نحو بناء لغوي جديد ، للأب هنري فليش اليسوعي ، تعريب وتحقيق الدكتور : عبد الصبور شاهين ، طباعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1966 .

15- علم اللغة العام (الأصوات) ، الدكتور : كمال محمد بشر ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، القاهرة، 1975م.

16- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، (الشوكاني) محمد بن علي ، دار ابن حزم ، طباعة بيروت 2000م .

17- القاموس المحيط للفيروزابادي، العلاَّمة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي، 729-817هـ ، طباعة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1397هـ-1977م .

18- القرطين (أو كتابي مشكل القرآن وغريبه) ابن مطرف الكناني ، المتوفى سنة 1354هـ، طباعة الخانجي 1355هـ .

19- الكتاب : (سيبويه) أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر تحقيق عبد السلام هارون ، طباعة دار القلم ، 1966م .

20- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، (الزمخشري) جار الله محمود بن عمر، وبهامشه: الانتصاف. ناصر الدين أحمد بن محمد بن محمود السكندري ، طباعة التجارية 1354هـ .

21- لسان العرب ، (ابن منظور) محمد بن مكرم بن منظور ، بيروت ، دار صادر 1300هـ .

22- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، (النسفي) أبو البركات عبد الله بن أحمد ابن محمود ، طباعة الحسينية المصرية 1344هـ .

23- المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

24- من أسرار اللغة، الدكتور: إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السادسة، القاهرة 1978م.

25- نتائج الفكر في النحو ، للسهيلي أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ، تحقيق الدكتور: محمد إبراهيم البنا ، الطبعة الثانية ، دار الاعتصام 1404هـ-1984م .

26- النهاية في غريب الحديث والأثر ، (ابن الأثير) مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ، طباعة الحلبي ، 1963م .

المراجع

(1) لسان العرب ، مادة سبح 1914 .

(2) ديوان الأعشى 147 ، ميمون بن قيس الملقب بصناجة العرب .

(3) تهذيب اللغة للأزهري ، مادة سبح 338/4 .

(4) لسان العرب 1917 .

(5) لسان العرب 1914 .

(6) إعراب ثلاثين سورة 54 والقرطين 252/1 .

(7) لسان العرب ، 1916 .

(8) القاموس المحيط للفيروز أبادي ، مادة " سبح " 225/1 .

(9) تهذيب اللغة للأزهري ، مادة " سبح " 339/4 والقاموس المحيط 225/1 .

(10) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي 8 ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 1968م .

(11) لسان العرب ، مادة سبح ، 1916،1915 .

(12) الحديد 1 ، الحشر 1 ، الصف 1 ، السجدة 15 .

(13) الإسراء 44 ، القلم 28 ، الفتح 9 ، البقرة 30 ، طه 33 ، الرعد 13 ، النور 36 ، 41 ، الحشر 24، الجمعة1، التغابن1، الأنبياء 20-79، الزمر 75، غافر 7، فصلت 38، الشورى 5، الأعراف 206.

(14) آل عمران 41 ، الحجر 48 ، طه 130 ، الفرقان 58 ، غافر 55 ، ق 39 ، 40 ، الطور 48 ، 49، الواقعة 74-96 ، الحاقة 52 ، الأعلى 1 ، النصر 3 ، الإنسان 26 ، مريم 11 ، الأحزاب 42 .

(15) النور 41 ، الإسراء 44 .

(16) الصافات 166 ، 143 .

(17) يوسف 108 ، الإسراء 1 ، 93 ، 108 ، 43 ، الأنبياء 33 ، 87 ، 26 ، المؤمنون 91 ، النمل 8، القصص 68 ، الروم 17 ، 40 ، يس 36 ، 83 ، الصافات 159 ، 180 ، الزخرف 13 ، 82 ، الطور 43 ، الحشر 23 ، القلم 29 ، البقرة 32 ، 116 ، آل عمران 191 ، المائدة 116 ، الأعراف 143 ، يونس 10 ، 18 ، 68 ، النور 16 ، الفرقان 18 ، سبأ 41 ، النساء 171 ، الأنعام 100 ، التوبة 31 ، النحل 1 ، 57 ، مريم 35 ، الزمر 4 ، 67 .

(18) لسان العرب ، مادة سبح 1917 .

(19) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ، 8 .

(20) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ، 8 .

(21) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ، 8 .

(22) العربية الفصحى : نحو بناء لغوي جديد للأب هنري فليش اليسوعي ترجمة : د. عبد الصبور شاهين، 142 ، طباعة الكاثوليكية – بيروت ، 1966 .

(23) من أسرار اللغة ، إبراهيم أنيس 134 .

(24) المزهر ، 47/1 .

(25) الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس 98،99 .

(26) الخصائص 145/2 ، 153 .

(27) المزهر ، 47/1 .

(28) المستصفى ، 21/1 .

(29) دور الكلمة في اللغة ، ترجمة كمال بشر 60-59 .

(30) دور الكلمة في اللغة 72-71 .

(31) من أسرار اللغة 145-144 .

(32) من أسرار اللغة 149 .

(33) نتائج الفكر في النحو للسهيلي 108 .

(34) علم اللغة العام " الأصوات " د. كمال بشر 119 .

(35) علم اللغة العام "الأصوات " 101 .

(36) صحيح مسلم ، ح 2694 ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل التسبيح والتهليل ، 2072/4 .

(37) فتح القدير للشوكاني 64/1 .

(38) أنوار التنزيل للبيضاوي 435 .

(39) تهذيب اللغة للأزهري ، " مادة سبح " 338/4 .

(40) البيان في إعراب غريب القرآن لابن الأنباري 72/1 .

(41) أنوار التنزيل للبيضاوي 8 .

(42) تهذيب اللغة للأزهري 340-338/4 .

(43) الخصائص 435/2 .

(44) لسان العرب 1914 .

(45) الخصائص لابن جنى 435/2 .

(46) الكتاب 149/1 بالهامش "باريس" .

(47) لسان العرب 1914 .

(48) فتح القدير للشوكاني 64/1 .

(49) مغنى اللبيب 147/1 .

(50) شرح التصريح 52/1 .

(51) تهذيب الصحاح ، مادة سبح 179/1 .

(52) تفسير القرآن العظيم 294/3 .

(53) الحديد 1 ، الصف 1 ، الحشر 1 .

(54) الجمعة 1 ، التغابن 1 .

(55) تفسير القرآن العظيم 302/4-305 .

(56) تفسير القرآن العظيم 437/1-441 .

(57) تفسير القرآن العظيم 192/3-193 .

(58) أنوار التنزيل للبيضاوي 435 ، والمستدرك على الصحيحين للحاكم ، ح 3444 ، 414/2 .

(59) تفسير القرآن العظيم 170/3 .

(60) الكشاف 180/1 .

(61) الطراز 170/2 .

(62) الكشاف 695/1 .

(63) النهاية 184/3 .

(64) تفسير النسفي 104/3 .

(65) تفسير القرآن العظيم 274/3 .

(66) تفسير القرآن العظيم 582/3 .

(67) الكشاف 138/2 .

(68) الكشاف 106/2 .